كيف تصلح الأمة

٢

وما هو التهذيب الراقي؟ لو سألنا إحدى المدارس هذا السؤال لاجابت قائلة: إن التهذيب هو تحصيل العلوم والاخلاق . أما التهذيب الراقي فهو ما صُبغ في صبغتنا الخاصة . وفي البلاد مدارس عديدة ، كما قلت ، ولكل مدرسة صبغة

إن هناك ولا شك بعض التفاوت في المادة وفي الطريقة — في الصباغ وفي الادوات ولكن الحقيقة الاولى التي تشاهدها ونلمسها وتألم منها هي اننا على تعدد المدارس سائرون على ما يظهر الى الوراء . فما السبب في ذلك ؟ هل المدارس لا تفيد؟ هل العلوم التي يتلقاها الطلبة لا تفيد ؟ هل هو التهذيب الطائفي أو الملي أو الاجنبي ؟ هل هو الادب الخيالي أم هو الادب العتيق البالي ؟ ما السبب ، هل هو تعدد المدارس، في تفكك الجامعة ، وتشتت الكلمة ، وفساد الاخلاق وانحطاط القوى المعنوية في الامة ؟

من المسائل التي لا تحتاج الى برهان أن التعليم اساس العمران . هي من الاوليات المعروفة المبتذلة . التعليم سياج الوطن . التعليم ركن من اركان الحرية والاستقلال . ولكننا، ولا وطن جامع لنا لا نحتاج الى السياج . اذن لا حاجة الى العلم ؟!

إن العلم لمن ألزم ما يلزمنا ، ولكنهُ وحده لا يفيد كثيراً . العلم اذا جُرِّدَ عن التربية الحقة يزيد المرء قوة ولا يزيده ادباً ، يرقي فيه القوى العاقلة ولا يكوّن الاخلاق ولا يهذبها . انهُ يمكّن المرء من السعي الموفق في سبيل الدنيا ، ويضعف فيه القوى الادبية والروحية التي يرتكز عليها حب الوطن

ان في العالم اليوم طريقتين أوربيتين في التعليم الراقي اي الطريقة الانجلوسكسونية والطريقة اللاتينية ، وان في البلاد مدارس تمثل فيها كلتا الطريقتين . ولكن أرباب الفكر وذوي الثقافة في علمَي التعليم والتربية يفضلون اليوم الطريقة الانجلوسكسونية على الطريقة اللاتينية . فقد قام حتى في فرنسا كتّابٌ يحبذون الطريقة الاولى اجمالاً ويفضلونها على الثانية ، ومن هؤلاء الفيلسوف لابون والسياسي لبون بورجوى ، وصاحب كتاب « سر تقدم الانكليز »

لا يسمح الوقت والمقام لشرح الطريقتين ، وبيان الفوارق بينهما ولكني أذكر مثلاً ان المدارس اللاتينية تعوّد كثيراً في الدروس والامتحانات على الكتب والمذاكرة والمدارس الانجلوسكسونية تعوّد على العقل والعمل. قال غوستاف له بون : «الشاب اللاتيني يتعلم لغة من اللغات بدرس كتب النحو والاستعانة بالمعجم ، ويظل عاجزاً عن ان يتكلم تلك اللغة . والشاب الانكليزي يتعلم لغة من اللغات دون ان ينظر في المعجم او في كتاب من كتب النحو وانما يقرأ ويتكلم. وبهذه الطريقة استطاع الانكليز ان يكوّنوا لأنفسهم طبقة راقية جداً من العلماء العاملين »

فمن كلام له بون يتضح ان في المنهج الانجلوسكسوني يعتمد الطالب اولاً على التجربة والعمل. وفي المنهج اللاتيني يعتمد اولاً على الكتب والنظريات. وها كم ملاحظة اخرى من كتاب « روح التربية » تأليف له بون . قال الفيلسوف الفرنسي: « لا يكاد الشاب الانكليزي او الاميركي يخرج من المدرسة حتى يجد طريقهُ الى العمل واما الشاب الفرنسي فبعد ان ينال الشهادة الثانوية او « الليسانس » يبقى عاجزاً عن كل شيء فاما ان ترزقهُ الحكومة وإما ان يضيع »

هو ذا السبب الاول عندنا ايضاً في إخفاق التعليم على الاجمال . هو ذا السبب في عجز شبابنا طلاب الوظائف. فاما ان ترزقهم الحكومة وإما ان يضيعوا او يهجروا البلاد

اما مدارسنا الوطنية غير الاسلامية فهي في منهجها اما لاتينية وإما انجلوسكسونية وليس في الشرق او فيما يهمنا اولاً من الشرق اي البلاد العربية منهج تعليم خاص منهج صالح عصري نفضله على المناهج الاوربية . لذلك ترانا في الاختيار مكرهين . ولا اظنكم تكرهون بعد هذا الايضاح ان لا بد من التفصيل . فاذا سئلت اي الطريقتين افضل اجيب : إني من رأي العلماء الافرنسيين له بون وبورجوى وصاحب كتاب « سر تقدم الانكليز » في تفضيل الطريقة الانجلوسكسونية ، من وجوه عديدة ، على الطريقة اللاتينية . واني فوق ذلك أقدم التربية على التعليم ، لان الغاية القصوى من التربية هي الاخلاق وحاجتنا الى الاخلاق هي أشد منها الى العلم

وما هي التربية ؟ التربية الحقة من وجهة علمية تُحصر في سلامتين ، سلامة الجسد وسلامة العقل . ونكننا نرى الحياة ناقصة اذا نظرنا اليها من الوجهة العلمية وحدها . فيجب ان ننظر ايضاً اليها من النواحي الأدبية والروحية والاجتماعية . عندئذ تتجاوز

التربية صحة الجسد والعقل الى ما فيه الخلق الكريم ، والذوق السليم ، والقلب الفهيم

ان التربية أخلقة قائمة على أصول كثيرة ، أهمها في نظري (١) الاعتماد على النفس (٢) وكرامة النفس (٣) وحسن الظن بالناس (٤) وحرية الارادة (٥) والجرأة الادبية (٦) ونبذ العقائد والتقاليد القديمة البالية (٧) والصراحة والصدق في القول (٨) والاستقامة في الرأي وفي العمل (٩) وحب العدل والانصاف (١٠) واللاطائفية بل واللادينية في السياسة وفي الآداب

هذه عشرة اصول في تكوين الاخلاق العالية ، وسأنظر موجزاً في بعضها :

ان في الاعتماد على النفس اعزازاً لشأن المرء وشؤون الامة . وان فيه لذة خاصة غير اللذة التي تجيء مع النجاح . ان فيه لذة السعي ، والخبر ، والاكتشاف . ومن باب الاعتماد على النفس الاستقلال الفكري ، على كل امرىء ان يفكر لنفسه ، ان يمرّن العقل على التفكير ، ان يعوّد النفس المراقبة والتحليل فلا يقبل رأي غيره ، او طريقة جاره ، قبل ان يختبرهما ، ويحقق صوابها . الاستقلال الفكري يخرج بالمرء من الخاديد التقاليد والعقائد الى ما انفرج من سبل المعرفة ، والى ما اتسع من جادات الحياة

اما حرية الارادة فانا في الشرق لفي اشد حاجة اليها . لا اريد بحرية الارادة معناها الوضعي الفلسفي . ولا أريد بحرية الارادة ان ينزع كل امرىء الى اهوائه ، ويسترسل في التفرد والأثرة المفضيين الى تفكك الجامعة والى الفوضى . انما اريد بحرية الارادة ان يدرك المرء الحسن والاحسن في كل شيء ، وان يريد للناس كما يريد لنفسه ، الأحسن دائماً . وان يدرك الواجب عليه ، وان يريد القيام به دون ان ينبّه له او يكره عليه . وان يدرك روح السيادة فيريد القوية السليمة على شدة احكامها ، ولا يريد الفاسدة الاثيمة على تساهلها

إعلموا ، رعاكم الله ، ان المرء يفوز بكل ما يسعى اليه — ينال كل ما يطلبه وكان في حيز المعقول — اذا اجتمعت في سعيه كل قواه ، وانحصر في طلبه كل قلبه ، وكل عقله ، وكل نفسه ، وينبغي له ان يكون في الحالين ثابتاً ، ومفادياً فوق ذلك ، بكل ما لا يساعد في تحقيق غرضه الاكبر . ان تمرين الارادة في الصغائر والكبائر من الامور يزيدها قوة ومرونة ، ويمكن صاحبها من السعي المستمر والثبات . انما الارادة روح الثبات ، وان في الثبات الفوز المبين

وهناك دعامتان من الاخلاق السامية مترعزعتان عند الشرقيين، هما الجرأة الادبية وحب العدل والانصاف. ليست الجرأة الادبية ان تنتقد الحكومة والرؤساء فيما تكتب او تقول وانت خلف مكتبك او بيتك. بل الجرأة الادبية هي في المواجهة والمصارحة. هي في قولك «لا» عند ما لا تستطيع ان تطيع، وفي قولك «نعم» عند ما الحقيقة توجب عليك الطاعة. أجل، ان الجرأة الادبية هي في وقوفك امام حاكمك او رئيسك سامي الرأس عزيزاً كريماً، فتحترمه وتطيعه في مواقف الحق، وتخالفه ولا تذعن لامره في مواقف الباطل. واما حب العدل والانصاف، فهو ما كنا لا نفتأ نعلمه، فهو من اشرف السجايا البشرية. ان من يشعر بذنبه ويقبل القصاص راضياً صابراً لاشرف ممن يشعر بحقه ويطالب به. وان من يطلب العدل لنفسه فقط يكشف عن نقص في خُلقه وادبه. يجب علينا اذن ان نعلّم الاولاد في المدارس وفي البيوت ان يقبلوا العدل وان كان عليهم، وان ينصف بعضهم بعضاً حتى في اللعب والمباراة

وهناك الاخيرة من دعائم الاخلاق العالية وهي جديرة بان تكون الاولى. هي الزم ما يلزم في تكوين اخلاقنا. من العقبات التي تعترض الشرقي عموماً في ارتقائه، والعربي خصوصاً، عقبةٌ جنسية يُكرَم عندها ابناء الطاعة والجهل — او ابناء الطاعة والمصلحة — ويقضي فيها على الحرية والاستقلال. عقبةٌ اقامها رؤساء الاديان وزرعوا في جوانبها شوكاً وفلاماً. عقبة يلجأ الى اكواخها كل من يخشى النور، نورَ العلم والحرية والرقي المدني، وكل من يرفض الاخاء والوحدة القومية والمساواة خوف ان يُغبن فيها. عقبة تبعد الناس بعضهم عن بعض، وتثير الناس بعضهم على بعض، فتفكك عناصر الامة، وتنقوض اركان الوطن. هي عقبة كأداء. ولا حياة لنا راقية، لا حياة وطنية جامعة، الاّ في تذليلها او هجرها

وهل من حاجة الى تسميتها؟ لا يا اخواني، ليس الدين ما اعني. انما الدين سهلٌ منبسطٌ فسيح فيه طرقٌ للشعوب كلها. اما العقبة فهي محوطة بالاسلاك الشائكة. العقبة هي الطائفة، هي الملة بل هي الفكرة البشرية الصغيرة التي تخرج بنفسها من دائرة الانسانية الكبرى، فقلما ترى الفضل في غير ابنائها، وقلما تريد الخير لغير ابنائها. وما اجمل ما قاله في هذا المعنى صديقي الشاعر الاميركي إدون مركهام واليك ترجمته:

«ان المتعصب رسم دائرة صغيرة لنفسه وجعلني انا الكافر خارجها. ولكني

والحب عزني غلبناهُ ، فقد رسمنا دائرة كبيرة وجعلناهُ خصمها »

اخواني ، ابناء وطني ، أليس في امكاننا ، اذا استعنا بالحب والتسامح وبشيء من التضحية ان نرسم الدائرة الكبرى التي ستضمنا كلنا جميعاً — كلنا ابناء السهول وابناء السواحل وابناء الجبال ؟

اخواني ابناء وطني ، ان اول ما يلزمنا في هذه البلاد السورية اللبنانية الفلسطينية الجغرافية في هذه البلاد التي تعددت فيها المعابد والمعاهد الدينية والمدارس والمساوئ المذهبية ، انما هو الشعور الوطني الخالص من شوائب المذهبيات والطائفيات كلها — الشعور الصافي السليم الخالص للوطن

قلت هذا منذ خمس وعشرين سنة — قلتهُ مراراً — ولا ازال اردده . انما الحاجة الى ترداده اليوم هي أشد مما كانت في الماضي . منذ خمس وعشرين سنة وانا اكتب واخطب لهذه الغاية القصوى التي يستقيم عندها الشعور الوطني الشاملُ لاجزاء الوطن كلها . ولا تزال الامة من هذا القبيل حيث كانت منذ خمس وعشرين سنة ، ولا ازال مع ذلك — بل لذلك — ثابتاً في الدعوة ، مثابراً على الجهاد

قلت ولا ازال اقول : علينا ان نرفع في شؤون الحياة المدنية الوطن على الدين

وعلينا ان ننسى خارج الكنيس والكنيسة والخلوة والجامع اننا اسرائيليون او مسيحيون او دروز او مسلمون . بل علينا ان نملك الطوائف كلها لنستطيع ان نؤلف طائفة الوطن الكبرى . اجل علينا ان نسعى في تأليف وطنية عالية شاملة . وركنها الاول الوحدة القومية الجغرافية ، وان نعزز هذه الوحدة بالاعمال لا بالاقوال . وعلينا ان نغرس هذه الفكرة في البيت وفي المدرسة ، وان نؤسس الجمعيات للنساء والرجال لتبثها في الأمة

ايتها الام اللبنانية ، ايتها الام السورية ، ايتها الام الفلسطينية ، انا نناديك باسم الوطن الذي سيعيش فيه أبناؤك ، فهل تريدين ان يعيشوا احراراً اعزاء او عبيداً اذلاء ؟ ان في طاقتك ان تساعدي في بناء الوطن الجديد ، بل ان في طاقتك ان ترفعي وحدك أركانهُ الكبرى . انا نناديك ايتها الأم ونستعين بك . انت نصف الامة ، بل أنت في حال التكوُّن الوطني الأمة كلها . علمي ابناءك محبة الوطن الحقة . قولي لهم : ان الاجنبي لا يحترمهم اذا كانوا لا يحترمون انفسهم . قولي لهم : ان الاجنبي لا

يحتقر لغة اجداده ، بل يحتقر في قسم من يحتقر لغة الاجداد . قولي لهم : ان اللغة العربية لغتهم فيعظموها ، وينتقروها ، ويعززوها . قولي لهم : ان الاجنبي لايغار على مصالح بلادهم وعلى لغتهم اذا كانوا هم لا يغارون عليها . عليهم ان يخلصوا للوطن قبل ان يخلصوا للاجنبي ، بل قبل ان يخلصوا لانفسهم . عليهم التساهل الديني ، والتضامن السياسي والاجتماعي . عليهم ان يكونوا سوريين اولاً ، ولبنانيين او شاميين او فلسطينيين بعد ذلك . عليهم ان يكونوا سوريين اولاً ، ومسلمين او مسيحيين او درزاً او يهوداً بعد ذلك

ايها المعلم ، علم تلاميذك الحرية فكراً وعملاً ، والاستقامة فكراً وعملاً ، والتساهل فكراً وعملاً . وعلمهم وان كنت اجنبيًّا ، ان من واجباتهم الاولى ان يعتمدوا على انفسهم ، فيستغنوا تدريجاً عن الاجانب . نعم ، يا افاضل الاجانب ، ان فضلكم الاكبر هو ان تعلمونا لنستغني عن فضلكم

ايها الاديب ، اروح هذه الامة من الاحلام والاوهام . ارحها وارح نفسك من البكاء والنحيب واعطها بدل شعر الخيال والدموع ، شيئاً من لب العلوم الحديثة واعطها شيئاً من الحقائق الوضعية والمباديء السلبية في الحياة . كن طبيباً قاسياً ، لا حبيباً مؤاسياً . كن من المشيدين لبناء التضامن القومي لا من الهادمين . واذكر ، رعاك الله ، مسلماً كنت او مسيحيًّا او درزيًّا او اسرائيليًّا ان التعصب الديني لغايات سياسية او التعصب السياسي لغايات دينية هو اخبث انواع التعصب وشرُّها

ايها الرؤساء ، ارشدوا الامة الى ما فيه خيرها هاهنا — في هذا العالم — وربَّنا ، لا بحرمها خير الآخرة . ساعدوا في تكوين العاطفة الوطنية الجامعة ، ساعدوا في تشييد الوحدة القومية . كونوا ، اكرمكم الله ، من البنائين

ايها السادة والسيدات ، اني على يقين من ان اصلاح هذه الامة الحقيقي الثابت انما هو بالمدارس اللامذهبية ، وبالتربية الوطنية الجامعة . عندئذ يقوم الوطن على اركانه كلها ، وفي مقدمتها الوحدة القومية التي لا تتم بغير التفكك الطائفي

امين الريحاني